

## مجلة

## مجمع اللغة العربية بدمشق

«مجلة المجمع العلمي العربي سابقًا»

شعبان سنة ١٣٩١ هـ

تشرين الأول «أكتوبر» سنة ١٩٧١ م

## متخيّر الألفاظ

من كتب اللغة كتاب: متخيّر الألفاظ لمؤلفه أحمد بن فارس، وقد طبع في بغداد في السنة الماضية، حققه الأستاذ هلال ناجي وصدّره بمقدمة واسعة ذكر فيها كل ما يتصل بحياة ابن فارس من المهد إلى اللحد، فلم يفغل عن شيء من هذه الحياة مثل ثقافته ومذهبه وغيرهما، فضلاً عن سعة الحواشي الدالة على امتداد الاطلاع، وعلى الجهد المبذول في توضيح ما يفتقر إلى التوضيح، وتفسير ما يحتاج إلى التفسير، وغير ذلك من كثير من الأمور التي تبين فرط العناية.

وقد عقد في المقدمة فصلاً أفاض فيه في الكلام على تأليف المعجمات وعلى ما اختصّ به كل معجم منها، ثم قابل بينها وبين «متخيّر الألفاظ» وأشار إلى خصائص هذا الكتاب، وإلى الفرق بينه وبين المعجمات التي تقدمته، وإذا أردنا أن نعرف مقدار ولع الأستاذ المحقق بكتاب: «متخيّر الألفاظ» فلا بد لنا على هذا الولع مثل قوله: إن هذا الكتاب أصبح جزءاً

من كيانه ، فقد صاحبه ما يقرب من عام كان فيه سميره كل ليلة ، ولولا أن موضوعي إنما هو كتاب : متخير الالفاظ لأتيت على ذكر ما اشتملت عليه مقدمة الأستاذ المحقق من المحاسن فأنا أكتفي بالإشارة إليها لأخلص إلى الموضوع الذي أردته .

ذكر ابن فارس في مقدمة كتابه السبب الذي من أجله سمى كتابه : متخير الالفاظ فانما نحله هذا الاسم لما أودعه من محاسن كلام العرب ومستعذب ألفاظها ... ولم يأل جهدا في الانتقاء والانتخاب والتخير وقد تبسّط في الكلام على مزايا كتابه مما لا حاجة بي إلى الإلماح إليه .

والذي قيد خاطري في هذه المقدمة البليغة قول صاحبه في خلالها : وليعلم ، أي قارئ الكتاب ، أن أول ما يجب على الكاتب والشاعر اجتناب السهل من الخطاب ، واجتناب الوعر منه والأنس بأنيسه والتوحيش من وحشيته ، فهذا زمان ذلك ، ولن يتسنم أحد ذروة البلاغة مع التكلف لفظ الغلق والتطلب للخطاب المستغرب .

إن قول ابن فارس : فهذا زمان ذلك ، إنما أراد به أن العصر الذي عاش فيه وهو القرن الرابع إنما هو عصر السهولة في البيان ، والبعد عن وحشي الالفاظ ووعرها ، ولا ريب في أن ذلك العصر كان عصر حضارة ، فلم تألف فيه الأذواق غير الكلام السهل ، فلكل عصر لغة تناسب روحه ، فما شاع من الالفاظ في عصر البداوة لا يصلح شيوعه في عصر الحضارة ، فهذا من بدائه الأمور التي لا تحتاج الى دليل .

ولو تتبعنا أبواب : متخير الالفاظ لوجدنا أن هذه الابواب تحتوي على ما أراده صاحبه من مستعذب الالفاظ ، وهي أبواب كثيرة تدخل فيها موضوعات شتى قد يطول إحصاؤها ، وليست الغاية أن أبيت صفات هذه الالفاظ كالعدوبة والسهولة وغيرهما وإنما الغاية في هذا المقال المختصر أن أشير الى ما خرج عن هذه العدوبة والسهولة في عصرنا هذا ، وكان مألوفاً في عصر ابن فارس ، ولا بد لي من ضرب الأمثال ، ففي بعض أبواب الكتاب تقع على الالفاظ كانت على ما يظهر أنيسة في عصر المؤلف ، وما أظن أننا نجد لها أنيسة في عصرنا .

لا شك في أن معظم ما تخيرته ابن فارس من الألفاظ إنما هو من مستعذب الكلام الذي يجب استعماله في عصرنا على النحو الذي استعمل عليه في عصر ابن فارس ، فهو مادة خصبة يستعين بها الكاتب في هذا الزمن ، فلا تنقطع به الصلة بينه وبين عصور البلاغة الماضية ، إلا أنه على نحو ما تقدمت الإشارة إليه وهي قليلة ، ولكن لا بد من ذكر بعضها حتى يتحقق عندنا أن لكل عصر لغة خاصة به .

من هذه الألفاظ قول ابن فارس في باب الرجل المحمود الخلق ، يقال : إنه أحلى من عذق بن طاب ، وابن طاب جنس من الرطب ، فإذا لجأ احدنا الى هذا التعبير يومنا هذا فلا يفهمه أحد ، وسرعة الحياة لا تتسع للبحث عن معناه ، والتفتيش في كتب اللغة عن أصل هذا الاستعمال .

وجاء في باب الرجل المشتهر النبيه ، تقول العرب : فلان لا يحجز في العكم ، وقد فسّر الأستاذ المحقق كلمة العكم فقال : العكم العدل أو الكارة وما شدّ وجمع به ثوب أو سواه ، فهذا قول إذا ساغ في عصر ابن فارس فإنه لا يسوغ في عصرنا على ما اعتقد .

وجاء في باب الشيب يقولون : وفلان قشعم دالف ، والقشعم المسن من الرجال كما فسّره المحقق .

وجاء في باب الجمال ويقولون : أحسن من الوذيلة وهي المرأة .

وجاء في باب العبوس والقبح يقال : وأصبح مسخّد الوجه ، والمسخّد في تفسير المحقق المورّم ، المصفر ، الثقيل من مرض أو غيره .

وجاء في باب السخاء ويقولون : هو صبير ينضح السميّ ، قال المحقق : الصبير السحاب الأبيض ، والسميّ جمع سماء وهو المطر .

وجاء في باب الغضب يقال : استأرب عليه غضبه أو : فلان يكسّر عليك الأرعاض ، للذي يفتاظ على الرجل ويتوعده ، والأرعاض واحدها رعظ وهو الذي يدخل سنخ نصل السهم .

وإني لأجتزئ بهذا القدر من الاستشهاد ، لأنني ما توخيت إلا الدلالة على أن لكل عصر لغة ، فلا ريب في أن كتاب : « متخير الألفاظ » قد حوى طوائف من اللفظ الجزل والكلام العذب ، والتراكيب المناسبة لروح الحضارة طبقاً للمذهب الذي ذهبه ابن فارس في تأليف كتابه النفيس ، وما هذا المذهب إلا مذهب الذوق الصافي ، ولست في حاجة إلى ذكر نماذج من الألفاظ السهلة التي انتخبها ابن فارس ، فالكتاب ملآن من هذه الألفاظ ولا يضيره ورود بعض ألفاظ يستغريها ذوقنا في أيامنا هذه ، ولو بعث ابن فارس في هذا العصر لاستغرب ما استغريناه ، ولجاري روح عصرنا ، معنى هذا كله أن لكل عصر كما كررت ذلك لغة خاصة به في مجامع الموضوعات ، في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وال عمران ، وما شابه ذلك ، فهذا دليل قاطع على أن اللغة لا تثبت على شكل من الأشكال ، فهي تنتقل على مر العصور من وجه إلى وجه ، ومن صورة إلى صورة ، شأنها في ذلك شأن المخلوقات في عالم الطبيعة ، ولو دققنا في المعجمات وفي كتب اللغة المتقدمة لرأينا أن كثيراً من الألفاظ قد ماتت وأن كثيراً منها قد تبدلت معانيها ، أو قد ولدها عصر من العصور لم تكن قبله ، ومما أوفر البراهين على ذلك ، فهذا عصرنا الذي نعيش فيه لو تتبعنا ما ولده من المفردات والتراكيب ، أو ما نقل معاني هذه المفردات والتراكيب من وجه إلى وجه ، لاهتدينا إلى أشياء كثيرة من هذا القبيل ، وما أظن أن بي حاجة إلى الاستشهاد ، فإن الذين يستمعون إلى دور الإذاعة ، أو الذين يطالعون صحف هذه الأيام وبعض مجلاتها وكتبها ، يشعرون بصحة ما أقول ، وإذا كان لامندوحة عن بعض الاستشهاد فاني أكتفي ببعض ألفاظ ولدها عصرنا من ذلك : التأميم والتصنيع والتطوير وغير ذلك ، فقد تحتاج مذاهب الاجتماع والاقتصاد والسياسة إلى ألفاظ تفصح عن أغراض مستحدثة ، فتخلق هذه الألفاظ طبقاً لرغباتها ، ولا نستطيع أن نقول أن هذه الألفاظ قد تكون خالدة في الآتي ، فقد تتغير المذاهب التي ذكرتها ، فتتغير معها ألفاظها وتراكيبها ، وتحدث بدلا منها ألفاظ وتراكيب

تستلزمها حاجات المستقبل ، كل هذا لا قدرة لنا على الوقوف في سبيله ، ولكن الذي يهمنا في كل هذه التغيرات انما هو بقاء لغتنا على روحها وعبقريتها ، فليس يقضي على اللغة ميلاد لفظ مستحدث ، وانما الذي يقضي عليها الخروج عن روحها ، والانحراف عن عبقريتها مما نسمعه في هذه الأيام من شعر أو نثر ، لم تألفه لغتنا ، هذا هو الذي نخشى ان يقضي على اللغة ، والمؤلم انه فسح لنشر هذا الشعر وهذا النثر دون شيء من القيد !!

فاذا كنا نعظم كتاب : متخير الألفاظ لأحمد بن فارس ، أو إذا كنا نعظم أشباه هذا الكتاب من تأليف شيوخ اللغة وأئمة البلاغة في قديم عصورنا ، فما السبب في هذا التعظيم الا حرص هذه الكتب على روح اللغة وعبقريتها .

« شفيق جبري »